

الأثر العربي

في الثقافة الانجليزية في القرون الوسطى

للأستاذ عبد العزيز أمين عبد المجيد

—————

ليس من الممكن معالجة موضوع الأثر العربي في الثقافة الإنجليزية بتفصيل واستيعاب في مقالة واحدة أو بضعة مقالات . ولا من الممكن أيضاً ذكر الكثير من أسماء العلماء والمؤلفين والمترجمين الذين ساهموا بنصيب وافر في نقل الثقافة العربية إلى دائرة الفكر الإنجليزي أو الأدب الإنجليزي . ولذلك سأحاول معالجة هذا الموضوع في ثلاث مقالات فقط : هذه المقالة وموضوعها « في القرون الوسطى » . والمقالة الثانية وموضوعها « في عصر النهضة » . والمقالة الأخيرة وموضوعها « في القرنين الماضيين » . وستكون معالجتي إجمالية عامة

إن ما أعنيه بالأثر العربي هنا هو كل ما وصل إلى الثقافة الإنجليزية عن طريق اللغة العربية ، سواء أكان ذلك من إنتاج العرب أنفسهم أم من إنتاج غيرهم من الأمم التي ترجمت فلسفتها وعلومها وآدابها إلى اللغة العربية . وأعني بالثقافة الإنجليزية ما أنتجته الترجمة الإنجليزية من أدب وفلسفة وعلم وكتب حينئذ باللغة اللاتينية التي كانت لغة التأليف والأدب في إنجلترا وغيرها من ممالك أوروبا في القرون الوسطى

لعلنا نذكر أن بغداد كانت مقر الخلافة العباسية ، وأن خلفاء هذه الدولة قد انصرفوا بعد أن استتب لهم الحكم إلى تشجيع العلم والعلماء ، فازدهرت العلوم على اختلاف أنواعها ، وبدأ عصر جديد هو عصر الترجمة من اللغات الأجنبية كالإيونانية والفارسية والهندية . وبلغ ذلك العصر أوجه في أيام الرشيد والمأمون . ووجد في اللغة العربية ما يسمى « بالعلوم الدخيلة » أي التي دخلت في اللغة العربية من لغات أخرى ، كالطب والفلسفة والنطق والفلك والرياضة . ويسرى أكثر الكتب التي ترجمت حينئذ إلى أرسطوطاليس وأفلاطون وبطليموس وأبقراط وأقليدس من علماء اليونان وفلاسفتهم . وكان أكثر المترجمين من غير العرب — كما نعلم — لأن العرب أصحاب السيادة كانوا منصرفين إذ ذاك إلى العناية بنظام الحكم والسياسة . ولأن من قاموا بالترجمة

من السريان والنصارى واليهود كانوا على علم كاف بالعربية واللغات الأخرى المترجم عنها . نمت هذه العلوم الدخيلة وعكف على دراستها وترقيتها كثير من العلماء حتى أصبحت بغداد مركزاً للثقافة العربية في الشرق

امتدت فتوح الإسلام إلى شمال أفريقيا وجزيرة صقلية وبلاد الأندلس ، ووطد العرب سلطانهم هناك ، وهاجر إلى تلك الممالك كثير من العلماء الذين تفقهوا في العلوم الإسلامية والدخيلة ، ووجدوا من إكرام الخلفاء والأمراء لهم ما شجعهم على تنمية هذه العلوم ونشرها ، وأقبل العلماء والطلبة من المسلمين واليهود والمسيحيين على دراسة الفلسفة وعلوم الطب والرياضة والفلك وغيرها في المعاهد الإسلامية والمكتبات العامة التي أسست في طليطلة وقرطبة وغرناطة وأشبيلية حتى أصبحت هذه المدن الأندلسية مراكز للثقافة العربية في الغرب كما كانت بغداد في الشرق وإذا عرفنا أن أثر أية لغة في لغة أخرى إنما ينشأ عن الاتصال المباشر أو غير المباشر بين متكلمي هاتين اللغتين وجب أن نبحث عن : « متى وكيف وجد الاتصال بين العرب والإنجليز في القرون الوسطى » وهنا نجد أمامنا ميدانين اتصل فيهما العرب بالأوروبيين عامة ومن بينهم الإنجليز . الميدان الأول هو الميدان الشرقي في مصر وفلسطين والشام وآسيا الصغرى أيام الحروب الصليبية ، والميدان الثاني هو الميدان الغربي في جزيرة صقلية وفي الأندلس . وفي كلا الميدانين كان تأثير العربية في كافة الثقافات الأوروبية ومن بينها الإنجليزية . وربما كانت إنجلترا أقل الممالك تأثراً بالنفوذ العربي بدأت الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى وتوالت ست مرات حتى أوائل القرن الثالث عشر . واشتركت في هذه الحروب الصليبية كل ممالك أوروبا ، كما قاد هنرى الثانى ملك الإنجليز جنوده في الحرب الصليبية الثالثة ضد العرب . وكانت هذه أول مرة في التاريخ يلتقى فيها العرب والإنجليز وجهاً لوجه ، ويرى الإنجليز ما كان عليه العرب من حضارة وتفوق في فن الحرب ونسبة الجيوش وطرق الهجوم والدفاع . وكان لهذا الاتصال أثره المباشر في أن نقل الإنجليز عن العرب نظم الحرب والتحصين ، ووسائل النقل ، واستعمال النقود وتوزيع الضرائب وصنع الزجاج . ويرجع علماء اللغة أن بعض الكلمات قد تسرب من العربية إلى لغة الإنجليز (أعني اللاتينية) في ذلك العصر . وذلك مثل كلمة Cotton القطن ، Sugar السكر ، Zarget الدرقة

كثيراً من الكلمات العربية في ترجمته، وألف كتاباً سماه «المعضلات الطبيعية» اعترف فيه بفضل الدراسة العربية، وذكر فيه كروية الأرض، وأن المادة لا تفنى، وشرح أسباب الزلازل، وكان يعتمد في كل ما كتب على الأدلة العقلية أو التجربة.

ومن تلمذ من الإنجليز على العرب Robert of Chester فقد درس في الأندلس وهو أول من ترجم القرآن من العربية إلى اللاتينية، كما ترجم كثيراً من الكتب في علم الجبر والكيمياء. ولا تزال هاتان الكلمتان في الإنجليزية حتى الآن: Algebra و Chemistry وهناك أيضاً تلميذ آخر يسمى ألفرد الإنجليزي Alfred the Englishman درس في الأندلس وترجم من العربية كتاب النباتات لارسطوطاليس.

ولا يفوتنا أن نذكر هنا ميخائيل الاسكتلندي Michael de Scott فقد زار صقلية ودرس في طليطلة ثم ترجم من العربية رسالة في علم الفلك لمؤلفها نور الدين أبي إسحاق البتروجي، ونقل فلسفة ابن رشد، وعلق على كتب ابن سينا وترجم من العربية كتاب الحيوان لارسطوطاليس.

وكذلك عرف الإنجليز طب العرب، وكيفية استعمال الاسطرلاب، واستبقوا فيه بعض الكلمات العربية كالغرب، والمرى، والتمطرة، كما اقتبسوا الطرق العربية في الحساب

ولما كانت الفلسفة والعلوم والآداب في القرون الوسطى قوية الارتباط بعضها ببعض تأثر الأدب الإنجليزي مباشرة بكل ما ترجم من العربية إلى اللاتينية من فلسفة أو علم أو أدب. ويذكر علماء الأدب أن تشوسر الشاعر الإنجليزي القديم اقتبس في أشعاره بعض المعاني من كتاب اسمه (أمثال الفلاسفة)، وكان قد ترجم هذا الكتاب أولاً من العربية إلى اللاتينية ثم ترجم بعد ذلك من اللاتينية إلى الإنجليزية، وهو أول كتاب إنجليزي طبع بمطبعة كاستون. وكذلك كتب تشوسر رسالة في الاسطرلاب اعتمد فيها على كتاب «الاسطرلاب» للمؤلف العربي «ما شاء الله» وعلى كتاب للقيسي اسمه «مقدمة في علم الفلك». وكتب أيضاً رسالة سماها «الخبر واللبن للأطفال» تجلت فيها الروح العربية

وقد ترجمت مجموعة من القصص العربية إلى اللاتينية ومن بين هذه القصص بعض حكايات من كتاب كليلة ودمنة، وظهرت هذه القصص في الآداب الأوروبية عامة كما ظهرت في الأدب

Guide القائد، وغير هذه الكلمات مما لا مجال لذكره الآن. ولم يترك هذا الاتصال أثراً قوياً في الأدب الإنجليزي لأنه كان اتصالاً حريباً ولم يكن اتصالاً علمياً

أما في الميدان الغربي فإن جريرة صقلية كانت تحت حكم الأغالبة من العرب من أوائل القرن العاشر إلى أواخر القرن الحادي عشر. وبعد سقوط هذه الجزيرة في أيدي النورماندين ظلت اللغة العربية لغة الكتابة والتأليف بجانب اللاتينية والإغريقية، ولقى العلماء من المسلمين واليهود كل تشجيع وعطف من الملوك المسيحيين، وبخاصة فردريك الثاني ملك صقلية الذي جمع بلاطه كثيراً من نخبة الفلاسفة والأطباء والنجميين وعلماء الرياضة. وكذلك شجع الملك روجر الصقلي العلماء على التأليف والترجمة إلى اللغة اللاتينية، إما من العربية، وإما من الإغريقية. وكانت هناك علاقات صداقة قوية بين البلاط الإنجليزي، وبين بلاط الملك روجر الصقلي الذي عهد بمنصب ديوان الإنشاء في بلاطه إلى إنجليزي يسمى Robert of Selby وقد مهد هذا الإنجليزي لكثير من العلماء الإنجليز الإقامة في بلاط الملك روجر والاتصال بعلماء العرب، وترجمة بعض مؤلفاتهم، ونقل بعض الثقافة العربية إلى ثقافتهم. وكذلك نجد إنجليزياً آخر تشير إليه السجلات الصقلية العربية باسم «القائد برون»، واسمه بالإنجليزية Thomas Brown وقد شغل وظيفة القضاء في البلاط الصقلي، وعرف اللغة العربية، ثم عاد بعد ذلك إلى إنجلترا حيث اختاره الملك هنري الثاني وزيراً للمالية سنة ١١٥٨ م. وقد كان من نتيجة هذا الاتصال بين علماء الإنجليز وعلماء العرب في البلاط الصقلي أن أخذ الإنجليز عن العرب طرق البحث الفلسفية، وترجموا بعض الرسائل في الفلك والرياضة.

أما في الأندلس فإن تعاون المسلمين واليهود والمسيحيين في البحث والتأليف، وتسامح الولاة من المسلمين، وازدهار الحركة العلمية والأدبية قد فتح الطريق أمام طلاب العلم من ممالك أوروبا المختلفة فوفدوا إلى المأهدة الإسلامية الأندلسية للدراسة والترجمة إلى لغاتهم. ونذكر من بين هؤلاء ادلار الباجي الإنجليزي (Adlar of Bath) الذي سافر كثيراً في الشام وفلسطين وصقلية ثم درس في طليطلة، وجن عاد إلى إنجلترا أدهشه ما وجد عليه القوم من جهل بعلوم العرب وفلسفتهم (كما يقول هو) فأدخل في الثقافة الإنجليزية والفلسفة طريقة التفكير الحر في البحث. وكذلك ترجم من العربية رسالة في الفلك اسمها «الأزياج» واستبقى